بسم الله الرحمن الرحيم

مناهج المفسرين والمحدثين في بيان وصف وأسباب وعلاج ظاهرة الانتقاص من العلماء: دراسة تطبيقية

الملخص

تسلط هذه الدراسة الضوء على ظاهرة بدأت تنتشر في أوساط طلبة العلم الشرعي، ومنهم انتقلت إلى عوام الناس، وهي ظاهرة الانتقاص من قدر علماء الدين، ومن ثم شتمهم والطعن في سلامة نياتهم. وقد استخدمت في هذه الدراسة مناهج البحث الوصفي في بيان الوصفي التحليلي لبيان الظاهرة ثم المنهج الاستقرائي لاستقراء مناهج أبرز المفسرين والمحدثين الذين تناولوا سبل الوقاية والعلاج لتلك الظاهرة.

وقد أوضحت هذه الدراسة مدى تنبه علماء المسلمين إلى خطر تلك المشكلة، ووضوح مناهجهم في تحديد الأسباب المعينة على الوقاية منها قبل حدوثها، وعلاجها بعد حدوثها. وأن على طلبة العلم في عصرنا الحالي الاستفادة من تلك المناهج لعلاج الظاهرة ذاتها.

كلمات مفتاحية: مناهج مفسرين، مناهج محدثين، الانتقاص من العلماء، قبول الآخر، احترام المخالف.

Abstract

Approaches of the Holy Quran Interpreters and Traditionists in Stating, Describing, and Treating the Causes Behind the Phenomenon of the Erosion of Scientists: a Practical Study.

This study sheds light on the phenomenon of the erosion of Islamic theologians and scientists and the verbal abuse and challenge they face that aims to confront their integrity and intentions. This phenomenon has started spreading among the students of Islamic theology sciences and ordinary people too.

This study employs a descriptive research methods in a describing the analysis that illustrate the phenomenon. Then, it employs an inductive approach that extrapolates the most prominent Quran inference scholars and Traditionists who tackled the deferent means of prevention and treatment of this phenomenon.

The study shows how Muslim Scholars draw attention to the seriousness of this phenomenon, and it presents the clarity of their approaches in identifying the means that help in the prevention of this phenomenon before its occurrence, and its treatment. In addition, the study provokes contemporary theology sciences students to take advantage of these approaches when dealing with the same phenomenon.

Keywords: Quran interpreters, Traditionists, the erosion of scientists, the acceptance of others, respect for the offender.

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فقد انتشرت بين بعض طلبة العلم الشرعي في عدد من جامعاتنا ومعاهدنا الشرعية بدعة الغض من قدر السادة العلماء، والانتقاص من إخوانهم طلبة العلم، والطعن في صحة نياتهم.

ومن العجيب صدور تلك المواقف من أشخاص يقولون إنهم يسيرون على منهج السلف الصالح، فامتلأت النشرات والكتب بالانتقاص من قدر العلماء، وعلت الأصوات المسفهة للمخالِف، واعتلى المنابر مَن ليس له هم سوى الطعن في الدعاة وحملة الشريعة؛ مما هيأ التربة الخصبة لدعاة التكفير والتبديع عند أدنى خطأ.

جاءت هذه الدراسة لتتناول مناهج المفسرين والمحدثين لبيان وصف تلك البدعة وخطورتها، ومن ثم توضيح أبرز أسبابها . للوقاية منها .، ومرتكزات علاجها.

مشكلة الدراسة:

انتشرت بين أوساط المبتدئين في طلب العلم الشرعي بدعة الانتقاص من قدر العلماء، فجاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء إلى جهود المفسرين والمحدثين في تشخيص هذه الآفة وتعليلهم لأسبابها، والوسائل التي اقتحوها لعلاجها.

وهذه الدراسة ستجيب عن الأسئلة التالية:

١. هل الانتقاص من قدر العلماء بين أوساط المبتدئين في طلب العلم الشرعي أصبح ظاهرة منتشرة واضحة؟

٢. ما هي خطورة الانتقاص من قدر العلماء؟

٣. كيف عالج المفسرون والمحدثون تلك المشكلة؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى أمور أبرزها:

١. توضيح مناهج المفسرين والمحدثين في التحذير من خطورة الانتقاص من مكانة العلماء.

٢. بيان أبرز مواقف المفسرين والمحدثين ممن ينتقصون من مكانة العلماء.

٣. استقصاء أبرز معالم مناهج المفسرين والمحدثين في علاج ظاهرة الانتقاص من مكانة العلماء.

محددات الدراسة:

اقتصرت الدراسة على:

١. التمثيل على مواقف المفسرين والمحدثين ممن ينتقصون من العلماء وذكر آرئهم وأقوالهم في هذه المسألة.

٢. عدم الإطالة في التنظير والتأصيل للمسألة؛ لأن هذه الدراسة تطبيقية.

الدراسات السابقة:

تحدثت أكثر الدراسات السابقة عن أدب الخلاف والحوار بين المسلمين، من حيث التأصيل والتنظير، معددةً آداب الحوار في الكتاب والسنة، وأسباب ظهورالخلاف، وموقف طلبة العلم من خطأ العالِم.. الخ. وغالب ما ورد فيها من تأصيل يغطي الجانب النظري، بلا توسع في الجانب

التطبيقي من حيث إيراد الأمثلة . كما في هذه الدراسة . ومن تلك الدراسات السابقة:

– آداب الحوار وقواعد الاختلاف، لعمر عبد الله كامل، وهو بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي حول موقف الإسلام من الإرهاب، وعقد في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد تناول المسألة من حيث تعداد آداب الحوار النفسية: كالإخلاص والرحمة وحسن الاستماع، ثم الآداب العلمية: كالتدرج والرجوع إلى الحق، ثم الآداب اللفظية: كالكلمة الطيبة والتعريض، ثم الحديث عن تناول ضوابط الاختلاف.

– أدب الخلاف في الإسلام، لطه جابر العلواني، من سلسلة كتاب الأمة، قطر، وتحدث فيه عن بيان حقيقة الاختلاف وما يتصل بها، ثم تاريخ الاختلاف، وتنوع مناهج العلماء في الاستنباط، وختم الدراسة بالحديث عن الخلاف بين قرون الخيرية وآدابه، وأسباب الاختلاف في العصر الحالي.

– تصنيف الناس بين الظن واليقين، لبكر أبو زيد، تحدث فيه عن عظم الجناية على العلماء، وتحدث عن وصفه لأسباب مرض " التشكيك وعدم الثقة بالعلماء "، وتحدث عن خطورته وأنه يفتح باب الزندقة والانشقاق في صفوف الدعاة.

وقد تبين بعد استقراء تلك الدراسات . ومثيلاتها . طغيان جانب التنظير والتأصيل والتقعيد، على حساب التمثيل وإيراد مواقف العلماء؛ لذا جاءت هذه الدراسة لتغطي النقص في الدراسات السابقة.

منهج الدراسة:

سيتم اتباع المنهج الوصفي لبيان وصف الظاهرة، يليه المنهج الاستقرائي لتتبع مواقف وأقوال

العلماء في التحذير منها، ثم المنهج الاستنباطي لاستنباط أبرز وسائل الوقاية والعلاج.

المبحث الأول

الوصف والأسباب

المطلب الأول: وصف الظاهرة وبيان خطورتها

أضحى عدد من طلبة العلم الشرعي ينتقصون من قدر ومكانة العلماء المتقدمين والمتأخرين، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى الحكم بتكفير العالِم المخالِف!

وقد تنبه ابن تيمية إلى ذلك فقال . رحمه الله .: " إن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات.. وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض؛ بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر ولا يفسق بل ولا يأثم ".[١]

ومن علماء التفسير المعاصرين الذين نبهوا إلى خطورة تلك الظاهرة: د. علي الصلابي، قال: " يشهد عصرنا حملة غريبة وظاهرة عجيبة ألا وهي الاعتداء على هيبة العلماء العاملين، وطعنهم بخناجر الزيغ والضلال. ولقد شهدت الصحف والمجلات، والكتب والمقالات، وقاعات الدروس والحلقات نماذج كثيرة من تلك الحملات، فجلبت على أمة الإسلام أبلغ الأضرار، فشتت الشمل المشتت، وفرقت الجمع المُفرق، وعمقت الشق الغائر.. فمَن يبقى لأمة الإسلام إذا طُعن في

علمائهم؟ .. إن أسلوب الطعن في العلماء قرة عين لأعداء الإسلام؛ لأنه ينشئ جيلاً بلا قادة، وهل رأيتم جيلاً بلا قادة قد أفلح؟ ".[٢]

لكن هذا لا يعني التعصب للشيخ أو المذهب وعدم النقد الذاتي والحوار والمناظرة والمناقشة بين العالم والمتعلم، لذا يقول الشيخ محمد المختار الشنقيطي: " فليس . والله . من العيب أن يختلف العلماء وأن يتناظروا ويتناقشوا، هذا لا عيب فيه ولا حرج، ولكنّ المصيبة كل المصيبة دخول حثالات ممن لا يخافون الله ولا يتقونه في نقل الأحاديث ونقل الشائعات بين طلاب العلم حتى أفسدوا ذات بينهم.. وهذه هُوَّة سحيقة أن يتربى الشبابُ على الحقد على الدعاة والعلماء الأحياء، ثم ينتقل الدور إلى سلف الأمة، ثم تحرق كتبهم، ويكون ما أخبر به النبي ﷺ عن الشر وغلبَتِهِ، وعندها تقوم الساعة. فللجنَّة طلابها، وللنار طلابها . والعياذ بالله .، ونسأل الله أن يجنبنا هذه المهالك والمزالق ".[٣]

وخطر الحطِّ من كرامة الدعاة العاملين تنبَّه له أعداؤنا، ليجعلوا منه ثغرةً يأملون فتحها لاختراق حصن الإسلام. هذا ما ورد في البرتوكول السابع عشر من برتوكولات حكماء صهيون: " وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين من الأمميين [أي غير اليهود] في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبة كؤوداً في طريقنا، وإنَّ نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوماً فيوماً ".[٤]

إن هذا الخلل في تفكير بعض طلبة العلم الشرعي في الجامعات يسمح بأن يُنتج جيلاً جديداً من الدعاة، يخشى محمد أحمد الراشد أن يتحولوا إلى: " دعاة فضوليين، يكثر لغطهم ويقل عملهم.

وبالتدريج تتصبغ مجالسهم بصبغة الغيبة، وخشونة الألفاظ.. حتى تكون تهورات اللسان أمراً مستساغاً، وتُغتال فضائل المجالس التي شهدت بها قواعد التربية الإيمانية اغتيالاً، ويصبح الداعية المشارك فيها قليلَ الاحترام لعناصر الرعيل الأول، كثيرَ الجرأة عليها، وأقربَ إلى سوء الظن والغمز، طويل النقاش، عريض التحدي.

وليس ذلك عُرف المؤمنين أبداً، ولا سَمتهم الذي ورثناه. إنما ورثنا الحياء وعفاف اللسان، واحترام الكبير وتبجيل السابق، والتأول الحسن وترجيح العذر، وجمال اللفظ، والاستغفار للذين سبقونا بالإيمان، وتكرار الدعاء للمربي والحادي ".[٥]

وصدق الشيخ بكر أبو زيد . رحمه الله . فقال: " وبهذا تعلم أن تلك البادرة الملعونة من تكفير الأئمة: النووي، وابن دقيق العيد، وابن حجر العسقلاني . رحمهم الله تعالى . أو الحط من أقدارهم، أو أنهم مبتدعة ضُلال. كل هذا من عمل الشيطان، وباب ضلالة وإضلال، وفساد وإفساد. وإذا جُرح شهود الشرع، جُرح المشهود به، لكن الأغرار لا يفقهون ولا يتثبتون ".[٦]

المطلب الثاني: أسباب نشوء ظاهرة الانتقاص من العلماء

لنشوء تلك الظاهرة أسباب عدة، أبرزها:

أولاً: الجهل بسنة الله في اختلاف البشر:

يحاول كثير من الشباب المتحمس أن يجعل مِن الآخر نسخةً عنه، لجهله بالسنة الكونية في أن خلق الله الناس مختلفين، وجعل لكل إنسان شخصيته المستقلة، وتفكيره المتميز، وميوله الخاصة، فلكل منا بصمته الفريدة التي لا يشاركه فيها أحد.

لذا فمن العبث محاولة محو كل اختلاف بين الناس، فهذا أمر مخالف للفطرة التي فطرهم الله عليها؛ لأن الاختلاف سنة كونية اقتضتها الحكمة الإلهية، قال الله عز وجل: " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** " [هود: ١١٨].

بل لا صلاح للكون إلا بتنوع المشارب والأفكار، قال الحسن البصري . رحمه الله .: " لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا ".(٧) وقال ابن القيم: " ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه؛ لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم ".(٨)

ثانياً: دعوى احتكار الحقيقة:

يستدل بعض طلبة العلم بسلامة نيته والتزامه بأداء الفرض والنافلة وحضور مجالس العلم، وغير ذلك من فضائل الأعمال يستدل بها على أن طريقه مسدَّد وأنه معصوم عن الوقوع في الخطأ، ومن ثم الحكم على مخالفِهِ بأنه هو المخطئ . لمجرد أنه خالف رأيه هو .، وتلك الفكرة تخالف هدي السلف الصالح، ومن أقوالهم ومواقفهم في ذلك:

فهذا أحمد بن حنبل . رحمه الله . لا يزكي نفسه فقال: " ما رأيت أحداً أقل خطأً من يحيى بن سعيد، ولقد أخطأ في أحاديث.. ومَن يَعرى مِن الخطأ والتصحيف ؟ ". (٩)

الخطأ موجود مع وجود الإنسان، والإنسان مجبول على الخطأ، وحينئذ يتبين أننا كلنا ذوو خطأ، قال المزني . رحمه الله .: " لو عورض كتاب سبعين مرة لوُجِد فيه خطأ، أبى الله ﷻ أن يكون كتاباً كاملاً إلا كتابه ".(١٠)

وليس في وقوع الخطأ من العالم عيب ينقص من قدره، وهذا ما ذكره الصنعاني . رحمه الله .: "

النوادر تقع لأفراد العلماء مثل مالك والشافعي وغيرهما، ما أحد منهم إلا له نادرة ينبغي أن تُغمَر في جنب فضله، وتُجتنب ".[١١]

ما أجملها من معادلة ذكَرَها ابن القيم ـ رحمه الله ـ: " وكيف يُعصَم مِن الخطأ مَن خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدت غلطاته أقربُ إلى الصواب مِمَن عدت إصاباته ".[١٢]

وتأمل رد القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني على رسالة للعماد الأصفهاني ـ رحمهما الله ـ، معتذراً عن كلام استدركَه عليه: " لا يكتب إنسان كتابه في يومِه، إلا قال في غدِه: لو غيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترِك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جُلة البشر".[١٣]

ثالثاً: استعجال الخصومة لشخص اكتفاءً بسماع رأي بعض الناس:

لا يكاد يخلو مجلس من مجالس طلبة العلم من نقل لخلاف السادة العلماء، فلعل بعضهم يكتفي بما يسمع في تلك المجالس ليبني حكمه على العالِمِ الغائب دون التثبت، وفي ذلك مخالَفة لما جاء في الكتاب والسنة وهدي أهل العلم.

قال تعالى: " **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ** " [النساء: ٨٣].

وفي هذه الآية الكريمة: " إنكارٌ على مَن يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة ".[١٤]

" وفي هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع ـ وكفى به كذباً ـ .. وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم ".[١٥]

جاء في الحديث الصحيح: " إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كرِهَ لكمْ قِيْلَ وَقالَ.. ".[١٦]

من معاني (قيل وقال): " حكاية أقاويل الناس والبحث عنها، كما يُقال: " قال فلان كذا، وقيل عنه كذا ". مما يكره حكايته عنه ".[١٧]

وقد عدَّ ابن حبان . رحمه الله . عدم التثبت من صفات الحمقى الذين يجب الابتعاد عنهم، قال: " من علامات الحمق . التي يجب للعاقل تفقدها ممن خفي عليه أمره . سرعة الجواب، وترك التثبت..".[١٨]

ومن المهم تأمل قول د. مصطفى السباعي . رحمه الله .: " والجماهير دائماً أسرع إلى إساءة الظن من إحسانه.. فلا تصدق كل ما يقال ولو سمعته من ألف فم، حتى تسمعَهُ ممن شاهده بعينه، ولا تصدق مَن شاهد بعينه حتى تتأكد من تثبُّته فيما يشاهد، ولا تصدق مَن تثبَّتَ فيما يشاهِد حتى تتأكد من براءته وخلوه عن الغرض والهوى ".[١٩]

رابعاً: تناقل طلبة العلم كلام الأقران من علمائهم بعضهم في بعض:

تنبه إليه العلماء قديماً إلى انتقاص بعض طلبة العلم في عالِمٍ بناء على كلام عالم آخر، فحرصوا على منع طلبة العلم من الخوض فيه، وحثوا طلبة العلم أن لا يبنوا من خلالها أحكامهم على المشايخ والعلماء، بل لم يعتدَّ المحققون من الأئمة بكثير من كلام الأقران بعضهم في بعض، ولم يأخذوا بها في تجريح رواة الحديث.

قال السبكي . رحمه الله .: " إياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة والثوري، أو بين مالك وابن أبي ذئب، أو بين أحمد بن صالح والنسائي، أو بين أحمد بن حنبل والحارث

المحاسبي . وهلم جراً . إلى زمن العز بن عبد السلام والتقي ابن الصلاح، فإنك إن شُغلتَ بذلك خفت عليك الهلاك؛ فإن القوم أئمة أعلام ولكل منهم مَحامل، وربما لم نفهم بعضها، فليس لنا إلا الترضي عنهم، والسكوت عما جرى بينهم ".[٢٠]

وقال الذهبي . رحمه الله .: " كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة، أو لمذهب، أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلِم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين. ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ".[٢١]

وقال في ترجمة أبي الزناد . رحمه الله .: " لا يُسمع قول ربيعة فيه، فإنه كان بينهما عداوةٌ ظاهرة ".[٢٢]

خامساً: الجهل بأبرز آداب النصيحة: الإسرار مع عدم التحقير:

قد يضطر المتحمس من طلبة العلم أن ينبه على خطأ رأي شيخ أو الإشارة إلى زلة قدمه كل ذلك له مسوغاته، وهو مما لا بأس به ولكن بشرط أن يكون بالسر مع عدم التحقير.

وليحذر الذين يطلقون ألسنتهم بسب وشتم وانتقاص أهل العلم من أن يصيبهم قول الله عز وجل: " **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** " [الأحزاب: ٥٨].

بل لعله يكون ممن يحارب الله جل جلاله، كما ورد في الحديث القدسي: " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ.. ".

الأولياء هم العلماء؛ إذ معاذَ الله أن يتخذ ولياً جاهلاً، فـ " عن الإمامين الجليلين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما قالا: إن لم يكن العلماء أولياءُ الله، فليس لله ولي ".[٢٣]

مراد طالب العلم وغايته: (الحق)، أما المجادلة والمخاصَمة بصوت عال أمام الملأ . مع انتقاص المخالف . فغالباً ما يدل على حظ النفس. قال العباس بن غالب الوراق . رحمه الله .: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، أكون في المجلس ليس فيه من يعرف السنَّة غيري، فيتكلم متكلم مبتدع أردُّ عليه؟

قال: لا تنصِّب نفسك لهذا، أخبِر بالسنة ولا تخاصِم.

فأعدتُ عليه القول، فقال: ما أراك إلا مخاصماً ".[٢٤]

وقال مرتضى الزبيدي . رحمه الله . شارحاً حالات مشروعية غيبة الفاسق: " إنَّ ذِكرَ الفاسق بما فيه ليحذره الناس: مشروط بقصد الاحتساب وإرادة النصيحة دفعاً للاغترار به، فمن ذكر أحداً من هذا الصنف تشفياً لغيظه أو انتقاماً لنفسه أو لنحو ذلك من الحظوظ النفسانية فهو آثم، صرَّح بذلك تاج الدين السبكي عن والده تقي الدين..

قال تاج الدين: كنت جالساً بدهليز دارنا، فأقبل كلب، فقلتُ: اخسأ كلبَ بنَ كلب، فزجرني والدي مِن داخلِ البيت. فقلت: أليس هو كلبَ بن كلب؟ قال: شرْطُ الجواز عدَمُ قصد التحقير. فقلت: هذه فائدة ".[٢٥]

قلت: هذا في التعامل مع الكلاب، فكيف بالتعامل مع العلماء الكرام؟!

ولعل بعض طلبة العلم يسأل العالم السؤال في رأيه بفلان أو فلان؛ لحاجة في نفسه بقصد

الانتقاص من الآخر، والحكمة أن لا يُستجاب له؛ لتأديبه. قال يحيى بن معين . رحمه الله .: " أخطأ عَفَّان في نيف وعشرين حديثاً ما أعلمتُ بها أحداً، وأعلمته فيما بيني وبينه. ولقد طلب إليَّ خلف بن سالم فقال: قل لي أي شيء هي؟ فما قلت له . وكان يُحب أن يجِدَ عليه ..

قال يحيى: ما رأيت على رجل قط خطأً إلا سترته، وأحببت أن أزين أمره. وما استقبلت رجلاً في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أبين له خطأه فيما بيني وبينه، فان قبل ذلك وإلا تركته ".[٢٦]

سادساً: جعل خلاف الرأي مستوجباً للمنافرة:

المسلم يُحب في الله ولله، وتقييمه للناس وحكمه عليهم ينبغي أن يكون بحسب قربهم من ربهم والتزامهم بأوامره، أما فرز الأشخاص بحسب مَن يوافق رأيي، ومن ثم تقريب الموافق وقطيعة المخالف، فهذه من البدع القبيحة التي لا تنبغي لأهل العلم وطلابه، فضلاً عن محاربتهم إياها وتحذيرهم العوام منها.

وذكر ابن القيم . رحمه الله . أن عبد الله بن مسعود خالف عمر بن الخطاب . رضي الله عنهما . في مائة مسألة اجتهادية، ومع ذلك كان ابن مسعود من عُمَّال عمر على الأمصار.[٢٧]

والعاقل من الناس لا يجعل خلاف الرأي مع الآخر سبباً في المنافرة، قال يونس الصدفي . رحمه الله .: " ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيته فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة ".

قال الذهبي . رحمه الله . معقباً: " هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون ".[٢٨]

وقال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: " لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق [ابن راهوية] وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً ".[٢٩]

أهل العلم يعدون أن مِن الفجور والجهل: نقل الخلاف العقلي من النقاش العلمي ـ بقصد تلاقح الأفكار ـ إلى معاداة قد تتطور إلى خلاف يوجب المنافرة وحمل السلاح، ومثاله ما ذكره الذهبي في ترجمة أبي نعيم الأصبهاني الأشعري: " كان بين الأشعرية والحنابلة تعصب زائد يؤدي إلى فتنة، وقيل وقال، وصداع طويل، فقام إليه أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام، وكاد الرجل يُقتل. قلت [الذهبي]: ما هؤلاء بأصحاب الحديث، بل فجَرة جَهلة، أبعدَ الله شرهم ".[٣٠]

سابعاً: التعصب واتباع الهوى:

علل الشاطبي ـ رحمه الله ـ سوء أدب بعض الناس مع أهل العلم وإهمال إنصافهم بعلَّة تخلقهم بخلق ذميم هو خلق: " اتباع الهوى "، فقال: " صاحب الهوى إذا دخل قلبَه وأشرِب حبه، لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان، ولا يكترث لمن خالفه ".[٣١]

كما تنبه له ابن القيم فقال: " كل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتَهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ. ومَن رَزَقَه الله بصيرة فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل. ولا تغتر باللفظ، كما قيل في هذا المعنى:

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن تشأ قلتَ ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزتَ وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى: (هل هو حق أو باطل؟)، فجرِّده من لبس العبارة، وجرد

قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه، ناظراً بعين الإنصاف.. فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه. وما سَلِم من هذا إلا مَن أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق، وقد قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر:

نظروا بعينِ عداوةٍ لو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا ".[٣٢]

ثامناً: البغي في الحكم وعدم الإنصاف:

الإنصاف شعار العلماء الموقعين عن رب العالمين، قال ابن القيم . رحمه الله .: " والله تعالى يحب الإنصاف بل هو أفضل حلية تحلى بها الرجل، خصوصاً من نصَّبَ نفسه حكماً بين الأقوال والمذاهب. وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: " **وَأُمِرتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** " [الشورى: ١٥]. فورثة الرسول ﷺ منصِبُهم العدل بين الطوائف، وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه. بل يكون الحق مطلوبه، يسير بسَيره، وينزل بنزوله، يدين بدين العدل والإنصاف ".[٣٣]

وصِفةُ المسلم أنه: " وقَّاف متبيِّن ".[٣٤]

قال الحافظ ابن عدي . رحمه الله .: " قلت للربيع: ما حمل الشافعي على روايته عن إبراهيم بن أبي يحيى مع وصفه إياه بأنه كان قدرياً؟

فقال: كان الشافعي يقول: لأن يَخِر إبراهيم من السماء أحبَّ إليه من أن يكذب ".[٣٥]

هذا هو الإنصاف حقاً، وصدق فيه قول الزيلعي . رحمه الله .: " والله يأمر بالعدل، وما تحلى

طالب العلم بأحسن من الإنصاف وترك التعصب ".[٣٦]

وتأمل الإنصاف في قول ابن تيمية . رحمه الله .: " وليس كل مَن ذكَرنا شيئًا مِن قوله من المتكلمين وغيرهم، نقول بجميع ما يقول في هذا وغيره، ولكن الحق يُقبَلُ مِن كل مَن تكلمَ به، وكان معاذ ﷺ يقول في كلامه المشهور عنه الذي رواه أبو داود في سننه: " اقبلوا الحقَّ مِن كل مَن جاء به، وإن كان كافراً . أو قال: فاجراً . واحذروا زيغة الحكيم ". قالوا: " كيف نعرف أن الكافرَ يقول الحق؟ " قال: " إن على الحق نوراً "، أو كلاماً هذا معناه ".[٣٧]

وفي رواية البيهقي: " ولا يثنيَنَّك ذلك عنه ".

قال البيهقي . رحمه الله . شارحاً: " فأخبر معاذ بن جبل أن زيغة الحكيم لا توجب الإعراض عنه، ولكن يُتركُ مِن قولِهِ ما ليس عليه نور. (فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا): يعني . والله أعلم . دلالةٌ من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس على بعض هذا ".[٣٨]

وقال د. يوسف القرضاوي: " والشاهد هنا قول معاذ ﷺ . بعد التحذير من زيغة الحكيم .: (ولا يثنيَنَّك ذلك عنه)، فإنه لعله أن يراجَع، فلا ينبغي أن يُسقطَ المرءُ بسبب كلمة يزيغ فيها عن الحق ".[٣٩]

المبحث الثاني

الوقاية والعلاج

قبل عرض مناهج العلماء في علاج ظاهرة الانتقاص من مكانة أهل العلم، ينبغي حث الشباب من طلبة العلم على وقاية أنفسهم من الخوض في أسبابها، أما إن وقعت فللعلاج أشكال تربوية يجب أن يغرسها العالِم في طالب العلم، أهمها الحث على الإخلاص، والتزام منهج السلف الصالح وتنبيه طلبة العلم إلى الاعتصام بالمرتكزات الآتية:

المطلب الأول: حسن الظن وعدم افتراض سوء نية المخالف:

علَّم رسول الله ﷺ الصحابة التماسَ الأعذار وعدم التسرع في افتراض سوء النية، فعن عَبَّاد بن شُرَحْبيلَ رضي الله عنه قال: " قَدِمْتُ مَعَ عُمُوْمَتِيَ المَدِيْنَةَ، فَدَخلْتُ حَائِطاً مِنْ حِيْطانِها [أي: بستان]، فَفَرَكْتُ مِنْ سُنْبُلِهِ، فَجَاءَ صَاحِبُ الحَائِطِ فَأَخَذَ كِسَائِيْ وَضَرَبَنِيْ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ أستَعْدِي عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إلى الرَّجُلِ فَجَاؤُوا بِهِ فَقَالَ: " مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ ".

فَقَالَ: " يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّهُ دَخَلَ حَائِطِيْ فَأَخَذَ مِنْ سُنْبُلِهِ، فَفَرَكَهُ ".

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ: " مَا عَلَّمْتَهُ إذْ كَانَ جَاهِلاً ؟ وَلا أَطْعَمْتَهُ إذْ كَانَ جَائِعَاً ؟ ارْدُدْ عَلَيْهِ كِسَاءَهُ ".

وَأَمَرَ لِيْ رَسُولُ الله بوَسْقٍ أو نِصْفِ وَسْقٍ " .(٤٠)

بل أخبرنا أن الإنسان قد يقول كلمة الكفر وهو يقصد ضدها، فقال: " للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ . مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ .: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ".(٤١)

قال ابن عثيمين . رحمه الله .: " وفيه: دليل على أن الإنسان إذا أخطأ في قول من الأقوال ولو كان كفراً سبَقَ لسانه إليه؛ فإنه لا يؤاخذ. فهذا الرجل قال كلمة كفر.. لكن لما صدر [الكفر] عن خطأ من شدة الفرح صار غيرَ مؤاخَذٍ به ".(٤٢)

وأخذ الصحابة الكرام بذلك، حين " شكا أهل الكوفة أن سعداً لا يحسن أن يصلي، فذكر عمرُ ذلك له، فقال سعد: أما أنا فكنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ .. فقال عمر: ذاك الظن بك أبا إسحاق ".(٤٣)

كما أخذ التابعون بذلك، ورد عن إمام التابعين سعيد بن المسيب . رحمه الله . قوله: " ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد له في الخير محملاً ".(٤٤)

وأحياناً يدل تعجل إساءة الظن في نية المخالف إن أخطأ . بحسب وجهة نظرك .: على عيب فيك أنت.. وما أجمل قول المناوي . رحمه الله .: " ومَن أساءَ الظن بمن ليس محلاً لسوء الظن به، دل على عدم استقامته في نفسه ! ".(٤٥)

بل ذهب الخطابي . رحمه الله . إلى أبعد من ذلك، حيث عدَّ سوء الظن بالأبرار دليل عدم مصاحبة أشباههم، قال: " معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار ".(٤٦)

ومن جميل القصص في هذا الباب، ما يروى مِن أن الربيع دخل على الشافعي . رحمهما الله . ذات يوم يعوده من مرض ألمَّ به، فقال له: " قوَّى الله ضعفك " !

فقال الشافعي: " لو قوَّى ضعفي لقتلني ".

قال الربيع: " والله ما أردتُ إلا الخير ".

فقال الشافعي: " أعلمُ أنك لو شتمتني لم ترد إلا الخير ".[٤٧]

المطلب الثاني: نصرة العالم لأخيه وعدم سماحه لطلبة العلم بالطعن فيهم:

من عجائب هذا الزمان، إشغال عدد ممن الشباب، الذين يزعمون أنهم طلبة علم، وقتَهم . الذي سيُسألون عنه يوم الحساب . بتتبع آثار علماء الأمة ودعاتها من كتب وتسجيلات وبرامج على الفضائيات لأجل هدف واحد، وهو تصيد أخطائهم ورصدها. فتجدهم يفرحون إن وقعوا على خطأ في تلاوة آية، أو ذهول عن إتقان ذكر متن حديث شريف بلفظه، أو لحن في اللغة، ومَن منا يخلوا من الخطأ ؟

أولئك الشباب يغفلون عن الحديث الذي رواه البراء بن عازب ﷺ : " قال: خَطَبَنَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَسْمَعَ العَوَاتِقَ فِيْ بُيُوتِها.. فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيْمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا المُسْلِمِيْنَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتْبَعْ عَوْرَةَ أَخِيْهِ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِيْ جَوْفِ بَيْتِهِ ".[٤٨]

ورحم الله إبراهيم بن أدهم إذ يقول: " كنا إذا رأينا الشاب يتكلم مع المشايخ في المسجد، أيسنا من كل خير عنده ".[٤٩] وقال السبكي . رحمه الله .: " الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته، وكثر مادحوه ومزكوه، وندر جارحوه، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو غيره، فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة. ولو فتحنا هذا الباب وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون وهلك فيه

هالكون ".[٥٠]

هذا وذكر ابن حجر . رحمه الله . قصة تستحق التأمل، حين أورد في وصف حال أحد قضاة اليمن ساعة وفاته: " وقد اندلع لسانه وأسودَّ، فكانوا يرون أن ذلك بسبب كثرة وقيعته في الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى ".[٥١]

وللشنقيطي . رحمه الله . في المسألة كلام جميل، قال: " لا خير فينا إذا أصبحنا نربي طلاب العلم على انتقاص العلماء، وأصبح طالب العلم لا يمكن أن يُعرف أنه طالبُ علم إلا بسبه للعالم الفلاني، والإمام الفلاني. فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يرزقنا حبهم، وأن يجعل ذلك الحب خالصاً لوجهه الكريم، موجباً لرضوانه العظيم ".[٥٢]

المطلب الثالث: الإيمان بأن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي المخالِف خطأ يحتمل الصواب:

قاعدة جليلة يظهر ليت الشباب يجعلونها شعاراً لهم، ففيها إظهار التواضع والضعف والتذلل لله وعدم ادعاء العصمة مِن الزلل التي هي لمالك الملك وحده سبحانه وتعالى.

كان شعار السلف من العلماء وطلبة العلم: " إذا سُئلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفينا في الفروع يجب علينا أن نجيب: بأن مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفينا خطأ يحتمل الصواب؛ لأنك لو قطعت القول لم يصح قولنا: إن المجتهد يخطئ ويصيب ".[٥٣]

ومن منهجهم في هذا الباب:

– قال سفيان الثوري . رحمه الله .: " ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحداً من إخواني أن يأخذ به ".[٥٤]

وقال يحيى بن سعيد . رحمه الله .: " ما برح أولو الفتوى يختلفون، فيُحِل هذا ويحرم هذا، فلا يرى المحرّم أن المحل هلك لتحليله، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه ".[٥٥]

وقال أبو حنيفة . رحمه الله .: " هذا رأيي فمن جاءني بخيرٍ منه قبلناه ".

قال ابن القيم . رحمه الله . معقباً: " ولو كان هو عين حكم الله لمَا ساغ لأبي يوسف ومحمد [ابن الحسن الشيباني] وغيرهما مخالفته فيه.. ولو علِموا . رضي الله عنهم . أن أقوالهم يجب اتباعها؛ لحرموا على أصحابهم مخالفتهم ".[٥٦]

أنت تطلب الحق، وبما أنك تطلب الحق فينبغي عليك الفرح به من أي مكان ظهر، سواء كان ظهوره على يديك أم من طريق خصمك.

قال ابن حزم . رحمه الله .: " قد يخطئ الفاضل . ما لم يكن معصوماً .، ولو أن ذلك الفاضل لاح له ما لاح لك لرجع إليك، ولو لم يفعل لكان غير فاضل.

وأخبِرُكَ بحكاية لولا رجاؤها في أن يسهُل بها الإنصاف عَن مَن لعله ينافر، ما ذكرناها وهي: أني ناظرت رجلاً من أصحابنا في مسألة فعلوتُهُ فيها لبكوء[*] كان في لسانه وانفضَّ المجلس على أني ظاهر. فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها بعض الكتب فوجدت برهاناً صحيحاً يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس فعرَّفته بذلك، ثم إني قد عَلَّمت على المكان من الكتاب.

فقال لي: ما تريد؟

(*) بكؤ الرجل بكاءة فهو بكيء: قلَّ كلامُه خِلقةً. انظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ١٩٩/٣ (ك أ ب).

قلت: حمْلَ هذا الكتاب وعرضَه على فلان، وإعلامَه بأنه المحِق، وأني كنت المبطل، وأني راجعٌ إلى قوله.

فهجم عليه من ذلك أمر مبهت، وقال لي: وتسمح نفسك بهذا ؟

فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا، ما أخرته إلى غد ".[٥٧]

المطلب الرابع: اعتقاد أن لكل مجتهد نصيب:

استنبط ابن تيمية . رحمه الله . هذا المرتكَز من قوله تعالى: " **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً** " [الأنبياء:٧٨]. قال: " هذان نبيان كريمان حكما في حكومة واحدة، فخص الله أحدهما بفهمهما، مع ثنائه على كل منهما بأن آتاه حكماً وعلماً. فكذلك العلماء المجتهدون للمصيب منهم أجران وللآخر أجر، وكلٌّ منهم مطيعٌ بحسب استطاعته، ولا يكلفُ اللهُ [المجتهدَ] ما عجزَ عن علمه ".[٥٨]

وقال القرطبي . رحمه الله .: " وقال جمهور أهل السنة . وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه . رضي الله عنهم: إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إنما هو الأفضل في ظنه ".[٥٩]

المطلب الخامس: الحرص على تأليف القلوب بدلاً من منافرتها:

بهذا المرتكَز يجب أن يربي المدرس أبناءه من طلبة العلم الشرعي، متمثلين ما قام به ابن تيمية . رحمه الله . قال: " والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفًا لقلوب المسلمين، وطلباً لاتفاق كلمتهم، واتباعاً لما أمِرنا به من الأعتصام

بحبل الله، وأزلتُ عامَّة ما كان في النفوس من الوحشة ".[٦٠]

ويقول: " ويُستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك المستحبات؛ لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصحلة فعلها [أي: المستحبات]، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم تغيير بناء البيت؛ لما في إبقائه من تأليف القلوب ".[٦١]

المطلب السادس: السماح للناس بالعمل بخلاف الاجتهاد الراجح:

أجاز الراسخون في العلم أن يعمل الناس على خلاف ما ترجَّح لدى العالم الذي ارتضوا تقليده، وفي هذا تغليب لتأليف القلوب على نصرة المذهب، وفيه أيضاً تعويد لطلبة العلم من الشباب المتحمسين على ترك الغلو والتعصب لأفكارهم ومذاهبهم، ما دام الخلاف معتبراً.

قال ابن تيمية: " إذا اقتدى المأموم بمن يقنت في الفجر . أو الوتر . قنتَ معه سواء قنت قبل الركوع أو بعده، وإن كان [أي: الإمام] لا يقنت لم يقنت معه، ولو كان الإمام يرى استحباب شيء والمأمومون لا يستحبونه فتركه لأجل الاتفاق والائتلاف كان أحسن ".[٦٢]

المطلب السابع: حفظ اللسان:

اعلم أخي حفظك الله ورعاك، أن الخير كل الخير في حفظ اللسان، قال يحيى بن أبي كثير . رحمه الله .: " خِصلتان إذا رأيتَهما في الرجل فاعلم أن ما وراءهما خيرٌ منهما: إذا كان حابساً للسانه، يحافظ على صلاته ".[٦٣]

اعلم يا أخي أن ذكرك إخوانك من طلبة العلم بما يكرهون أمام غيرهم: (غيبة)، وفي أحسن أحوالها: (شهادة). هي شهادةٌ ستُسأل عنها يوم الفصل " **سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** " [الزخرف:

١٩]. واحذر لعل شهادتك تكون شهادة زور.

وشهادة الزور ليست من أخلاق عباد الرحمن: " **وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً** " [الفرقان: ٧٢]؛ لأنهم يعلَمون أن شهادة الزور من أكبر الكبائر.[٦٤] فالنار النار إن لم تكن منصفاً في أحكامك.

واحذر أن تتمثل إحدى خصال أهل البدع التي حذر منها ابن تيمية . رحمه الله .: " ولما كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل، كان كلام أهل الإسلام والسنة مع الكفار وأهل البدع بالعلم والعدل لا بالظن وما تهوى الأنفس. ولهذا قال النبي ﷺ : " الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ: اثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ: رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَلَمْ يَقْضِ بِهِ وَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ لَمْ يَعْرِفْ الْحَقَّ فَقَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ".[٦٥] فإذا كان مَن يقضي بين الناس في الأموال والدماء والأعراض إذا لم يكن عالماً عادلاً كان في النار، فكيف بمن يحكم في الملل والأديان وأصول الإيمان والمعارف الإلهية والمعالم الكلية بلا علم ولا عدل، كحال أهل البدع والأهواء الذين يتمسكون بالمتشابه المشكوك، ويدعون المحكم الصريح ".[٦٦]

" واعلم يا أخي . وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا مِمَن يخشاه ويتقيه حق تقاته . أن لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براءٌ أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتعه وخيم ".[٦٧]

فلا تتعجل بتكفير إخوانك المسلمين أو تفسيقهم أو تبديعهم لاجتهاد خلفك فيه الرأي فهذا ما حذر منه شيخ الإسلام ابن تيمية . رحمه الله . فقال: " أما التكفير، فالصواب أنه من اجتهد من أمة

محمد صلى الله عليه وسلم، وقصدَ الحق، فأخطأ لم يكفر، بل يغفر له خطؤه.. فالتكفير يختلف بحسب اختلاف حال الشخص، فليس كل مخطئ ولا مبتدع، ولا جاهل ولا ضال، يكون كافراً، بل ولا فاسقاً، بل ولاعاصياً ".[٦٨]

وضرب الذهبي مثالاً على عبارة ابن تيمية " التكفير يختلف بحسب اختلاف حال الشخص "، فذكر عند ترجمته لابن حبان . رحمه الله .: " قال أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري مؤلف كتاب (ذم الكلام): سمعت عبد الصمد بن محمد بن محمد، سمعت أبي يقول: أنكروا على أبي حاتم بن حبان قولَه: " النبوة: العلم والعمل"، فحكموا عليه بالزندقة، هُجِرَ، وكُتب فيه إلى الخليفة، فكتب بقتله.

قلت [الذهبي]: هذه حكاية غريبة، وابن حبان من كبار الأئمة، ولسنا ندعي فيه العصمة من الخطأ، لكن هذه الكلمة التي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يُعتذر عنه ".[٦٩] ثم أخذ الذهبي يُبيِّن ما يمكن أن يُحمَل عليه كلام ابن حبان.

وسواء أكفر مخالفك أم لم يكفر، فسق أم لم يفسق.. فلتترك هذه الدنيا وخصوماتها جانباً، ولنلتفت إلى إصلاح أنفسنا بلا تباغض، متمثلاً قول علي ﷺ لعمر بن طلحة بن عبيد الله . وكان بينه وبين طلحة ﷺ خلاف يوم الجمل .: " إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك في الذين قال الله عز وجل فيهم: " **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** " [الحجر:٤٧] ".[٧٠]

ومن العلاج الذي نصح به الذهبي رحمه الله . : قراءة كتب الرقائق والتزكية، نقلَ عن المعافري قوله: " كنا عند أبي شريح رحمه الله فكثرت المسائل فقال: قد درَنت قلوبكم فقوموا إلى خالد بن

حميد المهري استقِلوا قلوبكم وتعلموا هذه الرغائب والرقائق؛ فإنها تجدد العبادة، وتورث الزهادة، وتَجرُّ الصداقة، وأقلوا المسائل؛ فإنها في غير ما نزل تقسي القلب، وتورث العداوة. قلت [الذهبي]: صدق والله ".[٧١]

وعلينا أن نتعاهد جلاء قلوبنا كي لا يختلط علينا الحق بالباطل، كما نصح ابن القيم . رحمه الله . فقال: " لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء.. وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه؛ فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل ".[٧٢]

والله نسأل أن يجعلنا من الذين مدحهم بقوله: " **وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** " [الحشر: ١٠]. صدق الله العظيم.

نتائج الدراسة:

١. ظاهرة الانتقاص من قدر العلماء ظاهرة خطيرة؛ فالذي يتطاول على العلماء لا يمنعه شيء من التطاول على مَن هم دونهم.

٢. انتبه المفسرون والمحدثون إلى ظاهرة الانتقاص من قدر العلماء فوضحوا وصفها صفوها، وبينوا أسبابها، وحثوا الناس على سلوك سبل الوقاية منها وعلاجها.

٣. الانتقاص من قدر أهل العلم حرام شرعاً، وهو ليس دأب السلف الصالح من المفسرين

والمحدثين.

هذا ويوصي الباحث الدعاة وطلبة العلم بعدم السكوت عن الانتقاص من أهل العلم ومحاربتها وبيان الحكم الشرعي فيها.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش

---

١) الحراني، ابن تيمية (١٩٨٥م)، *مجموع الفتاوى*، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، الرياض، ٣٥ / ١٠٠.

٢) الصلابي، د. علي، (٢٠٠٥م)، *سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب*، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٦٠/٢.

٣) الشنقيطي، محمد مختار، *وصايا لطلاب العلم*، تسجيل صوتي، موقع تسجيلات الشبكة الإسلامية: http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=audioinfo&audioid=130576

٤) التونسي، محمد خليفة، (١٩٨٢م)، *الخطر اليهودي/ بروتوكولات حكماء صهيون*، ترجمة: عباس محمود دار الكتاب العربي، بيروت، ط٦، ص٢٠٤.

٥) الراشد، محمد أحمد، (٢٠٠٠م)، *فضائح الفتن*، دار البشير، عمان، ط١، ص ١٧.

٦) أبو زيد، بكر، (٢٠٠٠م)، *تصنيف الناس بين الظن واليقين*، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ص٩٤.

٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٨٤/١٩ (٨٧٩٢).

٨) الدمشقي، ابن قيم الجوزية، (١٩٨٠م)، *الصواعق المرسلة*، محمد بن الموصلي، مكتبة المتنبي ٢ / ٥١٩.

٩) الحنبلي، ابن مفلح، (د. ت)، *الآداب الشرعية والمنح المرعية*، تحقيق: عصام الحرستاني، دار الجيل، بيروت، ط١، ٢٣٢/٢.

١٠) البغدادي، الخطيب، (١٩٦٠م)، *موضح أوهام الجمع والتفريق*، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٤/١.

١١) الصنعاني، محمد، (١٣٧٩هـ)، *سبل السلام*، تحقيق: محمد عبد العزيز الخولي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ٩٠/٢.

١٢) الدمشقي، ابن قيم الجوزية، (١٩٧٣م)، *مدارج السالكين*، تحقيق: محمد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ٥٢٢/٢.

١٣) خليفة، حاجي، (١٩٩٢م)، *كشف الظنون*، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤/١.

١٤) الدمشقي، ابن كثير، (١٩٩٩م)، *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق: حسان الجبالي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ط١، ص٤٤٨.

١٥) القاسمي، محمد جمال الدين، (١٩٩٤م)، *محاسن التأويل*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢/٢.

١٦) رواه البخاري (١٤٧٧) ومسلم (٥٩٣) من حدِيث المغِيرة بن شعبة ﷺ.

١٧) العسقلاني، ابن حجر، (١٩٩٣م)، *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*، ، مراجعة: عبد العزيز بن باز، ط١، دار الفكر، بيروت، ٣٠٦/١١.

١٨) البستي، ابن حبان، (١٩٧٧م)، *روضة العقلاء ونزهة الفضلاء*، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١١٩.

١٩) السباعي، د. مصطفى، (١٩٨٧م)، *أخلاقنا الاجتماعية*، ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٥، ص٦٠.

٢٠) اللكنوي، محمد عبدالحي، (١٤٠٧هـ)، *الرفع والتكميل في الجرح والتعديل*، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٣، ص٤٢٩.

٢١) الذهبي، شمس الدين محمد، (١٣٢٥هـ)، *ميزان الاعتدال*، مطبعة السعادة، القاهرة، ١١١/١.

٢٢) المصدر ذاته ٤١٨/٢.

٢٣) البقاعي، برهان الدين، (١٤١٥هـ)، *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٤٢/٨، والحديث رواه البخاري (٦١٣٧).

٢٤) الحنبلي، ابن مفلح، *الآداب الشرعية* ٢٥٤/١.

٢٥) الزبيدي، مرتضى محمد، (٢٠٠٥م)، *إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٥٦٦/١.

٢٦) البغدادي، الخطيب أحمد، (د.ت)، *تاريخ بغداد*، تحقيق : د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٧٢/١٦.

٢٧) انظر: الدمشقي، محمد ابن القيم، (١٩٩١م)، *إعلام الموقعين عن رب العالمين*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٣٧/٢. وذكر من المسائل الخلافية: أن ابن مسعود صح عنه أن أم الولد تعتق من نصيب ولدها، ومنها أنه كان يطبق في الصلاة إلى أن مات وعمر كان يضع يديه على ركبتيه، ومنها: أن ابن مسعود كان يقول في " الحرام " هي يمين وعمر يقول طلقة واحدة، ومنها: أن ابن مسعود كان يحرم نكاح الزانية على الزاني أبداً وعمر كان يتوِّبهما ويُنكح أحدهما الآخر..

٢٨) الذهبي، شمس الدين محمد، (١٩٩٧م)، *سير أعلام النبلاء*، تحقيق: عمر بن غرامة الغمروي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٦/١٠.

٢٩) المصدر ذاته ٣٧١/١١.

٣٠) المصدر ذاته ٤٥٩/١٧.

٣١) الشاطبي، إبراهيم، *الاعتصام*، دار الفكر، بيروت، (د/ت،ط)، ٢٦٨/٢.

٣٢) الدمشقي، محمد ابن القيم، (٢٠٠٥م)، *مفتاح دار السعادة*، تحقيق: محمد الإسكندراني وأحمد عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ ١٤١/١.

٣٣) الدمشقي، محمد ابن القيم، *إعلام الموقعين* ١١٦/٣.

٣٤) قاله الحسن البصري، انظر: الحراني، ابن تيمية، *مجموع الفتاوى* ٣٨٢/١٠.

٣٥) الزركشي، محمد، (١٤٢١هـ)، *البحر المحيط*، تحقيق: محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٣٣٠/٣.

٣٦) الزيلعي، عبدالله، (١٩٩٥م)، *نصب الراية تخريج أحاديث الهداية*، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة، ٢٧٠/٢.

٣٧) الحراني، ابن تيمية، (١٩٩١م)، *الفتوى الحموية الكبرى*، تحقيق: شريف محمد، دار الفجر، القاهرة، ص١٥٣. والحديث رواه أبو داود (٤٦١٣) والحاكم (٨٤٢٢) بمعناه، وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

٣٨) السنن الكبرى ١٢٧/٢ (٢١٤٤٤).

٣٩) القرضاوي، د. يوسف، (١٩٩٠م)، *الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم*، دار الصحوة، القاهرة، ص١٣٥.

٤٠) رواه النسائي ٨٣١/٦ (٥٤٢٤) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٤٩٩٩). والوَسق (بفتح الواو): ستون صاعاً. انظر: ابن الأثير الجزري، علي بن محمد، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، ٤٠١/٥.

٤١) رواه مسلم عن أنس ﷺ مرفوعاً (٧٠٦٠).

٤٢) العثيمين، محمد، (٢٠٠٣م)، *شرح رياض الصالحين*، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٣/٣.

٤٣) رواه البخاري (٧٢٢) ومسلم (٤٥٣).

٤٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٣٧٩/١٧ (٨١١٤).

٤٥) المناوي، محمد عبدالرؤوف، (١٩٩٨م)، *فيض القدير*، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة الباز، مكة المكرمة، ٤٢٤/١.

٤٦) الخطابي، حمد بن محمد، (١٣٨٥هـ)، *العزلة*، المطبعة السلفية، القاهرة، ص٧٢.

٤٧) الرزاي، ابن أبي حاتم، (٢٠٠٣م)، *آداب الشافعي ومناقبه*، تحقيق: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ص٢٠٩.

٤٨) رواه أبو يعلى ٢٣٧/٣. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٣/٨: رواته ثقات.

٤٩) البغدادي، أحمد الخطيب، (١٤٠٣هـ)، *الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع*، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ٢٠١/١.

٥٠) السبكي، عبدالوهاب، (١٩٩٠م)، *قاعدة في الجرح والتعديل*، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت، ط٥، ص١٣.

٥١) العسقلاني، أحمد ابن حجر، *الدرر الكامنة*، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، ط٢، ٩/٢.

٥٢) الشنقيطي، *شرح زاد المستقنع*، كتاب إلكتروني، برنامج المكتبة الشاملة الإلكتروني، الإصدار الثالث، ٨١/٩.

٥٣) ابن نجيم، زين العابدين بن إبراهيم، (١٤٠٠هـ)، *الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان*، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣٨١.

٥٤) البغدادي، أحمد الخطيب، (١٩٩٨م)، *الفقيه والمتفقه*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٦٩/٢.

٥٥) القرطبي، ابن عبد البر، (١٩٩٤م)، *جامع بيان العلم وفضله*، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ٨٠/٢.

٥٦) الدمشقي، محمد ابن القيم، (١٩٧٥م)، *الروح*، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٦٦.

٥٧) الظاهري، علي ابن حزم، (د.ت)، *التقريب لحد المنطق*، تحقيق: إحسان عباس، دار مكتبة الحياة، ط١،

بيروت، ص١٩٤.

٥٨) الحراني، ابن تيمية، مجموع *الفتاوى* ٣٣/٤١.

٥٩) القرطبي، محمد بن أحمد، (١٩٩٤م)، *الجامع لأحكام القرآن*، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١١/٢٠٥.

٦٠) الحراني، ابن تيمية، مجموع *الفتاوى* ٣ / ٢٢٧.

٦١) المصدر السابق ٢٢ / ٤٠٧.

٦٢) المصدر ذاته ٢٢ / ٢٦٧.

٦٣) ابن أبي الدنيا، عبدالله، *ذم الكذب وأهله*، (١٩٩٣م)، تحقيق: محمد غسان عزقول، دار السنابل، دمشق، ط١، ص٥٠.

٦٤) عن أبي بكرة ﷺ قال: " كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَال: أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ، ثَلاَثًا : الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَوْ قَوْلُ الزُّورِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ ". رواه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (١٧٢).

٦٥) رواه أبو داود (٣٥٧٣) عن أبي بريدة عن أبيه ﷺ، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٨/٢٣٧ (٢٦١٤).

٦٦) الحراني، ابن تيمية، (١٩٦٤م)، *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*، تحقيق: علي السيد صبح المدني، مطبعة المدني، القاهرة، ١/١٠٨.

٦٧) ابن عساكر، علي بن الحسن، (١٩٩٥م)، *تبيين كذب المفتري*، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، ص٢٩.

٦٨) الحراني، ابن تيمية، مجموع *الفتاوى* ١٢ / ١٨٠.

٦٩) الذهبي، شمس الدين، *سير أعلام النبلاء* ٣١ / ١٠٨.

٧٠) رواه الحاكم في المستدرك (٣٣٤٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

٧١) الذهبي، شمس الدين، *سير أعلام النبلاء* ٧ / ١٨٣.

٧٢) الدمشقي، ابن القيم، (٢٠٠٥م)، *الوابل الصيب*، تحقيق: خالد طرطوسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٥٢.